السيميائية الغريماسية في تطبيقات عبد الحميد بورايو النقدية " المسار السردي وتنظيم المحتوى أنموذجا"

الدكتورة: فتيحـة سريدي
جامعة باجي مختار– عنابـة/ الجزائر

1- حدود السيميائية السردية ومقولاتها النقدية:

ليس من اليسير أن يلم المتلقي العربي بالنظرية السيميوطيقية كما رسم حدودها غريماس Greimas ومرد ذلك هو تشعب أبعاد هذه النظرية، وتعدد المؤلفات التي ألفها هذا الباحث، إلا أن ذلك لم يمنعنا من محاولة تحسس البناء العام للسيميائية السردية ولمختلف تجلياتها، وخطواتها الإجرائية متجنبين الدخول في متاهات وسراديب قد تحيد بنا عما نحن بصدد إنجازه.

يرجع التأسيس للسيميائية السردية مع ظهور كتاب" الدلالة البنيوية Sémantique Structurale لغريماس، وازداد هذا التوجه اكتمالا في الدرس الأدبي في أبحاث لاحقة وضحت وفصلت وعمقت الكثير من المسائل التي لم تكتمل رؤيتها في كتاب الدلالة البنيوية. تجسد ذلك في كتاب غريماس" في المعنى Du Sens"، وفي الجزء الأول من المعجم المعقلن الذي أنجزه بمعية جوزيف كورتيس J/courtes والصادر سنة 1979، وقد سعى غريماس في هذين المنجزين إلى تطوير مجموعة من المفاهيم الإجرائية التي اكتنفها نوع من الغموض، والنقص، واللاوضوح في كتابه: الدلالة البنيوية، وفي بعض الاجتهادات التي قام بها شراح غريماس وتلامذته أمثال: جوزيف كورتيس J/Courtes، وفرانسوا راستييه F/Rastier، وجون كلود كوكي J/C Coquet.

عملت السيميائيات المحايثة على إعادة النظر في مجموع الأسس التي بنيت عليها الدراسة الدلالية وذلك بجعلها علما مستقلا يهدف إلى تفسير إنتاجها بغض النظر عن تباين أشكال التعبير التي تتمظهر عبرها. ويرى غريماس أن مسألة الدلالة ترجع إلى مجموعة من العناصر البسيطة دائما، وما الموضوعات الكبرى المكتملة كالرسم والأدب والأسطورة، إنما

كانت انطلاقتها من وحدات دلالية صغرى مماثلة للوحدات الصوتية في مجال البحث اللساني. وقد اتبع هذا الفكر وهو يتطلع إلى الاكتمال مسارا توليديا يتراوح بين المحايثة والتجلي، وبين المجرد والمحسوس، إنه يمكن من معاينة الدلالة بدءا من أصغر وحداتها إلى أكبرها مبرزا أنظمة تمفصلها ومستوياتها المختلفة.

إن المجال الذي تتحرك فيه السيميائية المحايثة- كما يرى غريماس- لن يخرج بأي حال من الأحوال عن دراسة الأشكال المختلفة لوجود المعنى وطرق تمظهره بالإضافة إلى وصف نقل المضامين وتحويلها[1].

وكانت الغاية التي توخاها غريماس من خلال وضعه لهذا الكتاب هو سعيه إلى حل إشكال على مستوى كبير من الأهمية وهو اعتقاد الكثير من اللسانيين أن التحليل الدلالي أو دراسة المعنى في حد ذاته لا يمكن أن يصل إلى الدقة العلمية مقارنة بالدراسات الشكلية للسان التي يمكن ملاحظتها كما يمكن قياسها(Observables et mesurables)، في حين لا يمكن ملاحظة المعنى أو قياسه[2] لأنه يفرض معرفة خارج لسانية((فمن الطبيعي أن تتساءل الأوساط اللسانية فيما إذا كان علم الدلالة ينطوي على موضوع متجانس يستجيب للتحليل البنيوي وبتعبير آخر هل يحق لنا اعتبار علم الدلالة مبحثا لسانيا؟))[3].

إن المنجز السيميائي الذي تقدم به غريماس وثيق الصلة بالنظرية اللسانية، ويمكن القول إن كل بحث حول السيميائية المحايثة فيه تعانق بين البنيوية واللسانيات، ذلك أن كليهما يعد دراسة محايثة تقصي كل ما هو خارج لساني، إلا أن هذا التمرد والانزياح عن الدرس اللغوي السائد قبل صدور كتاب" محاضرات في اللسانيات العامة" لسوسور F/De Saussure والتي اعتبرت((موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في دراسته لذاته وبذاته))[4]، فرض نوعا من التراجع لمفهوم الفعل اللساني ليحل محله مفهوم العلاقة ذلك أن اللسانيات البنيوية ترى أن اللغة هي بمثابة أنواع من العلاقات التي تمفصل وحدات مستوى معين من اللسان، وكل وحدة هي بمثابة الكل الذي يشمل الأجزاء المرتبة ضمن شكل وقع الإجماع حول تسميته بنية لأن الأجزاء المكونة له تقوم بوظيفة معينة لا يمكنها التحقق إلا من خلال تمفصلها ضمن هذا الكل الذي يمثل نسقا معينا والذي لا يكتسب قيمته إلا من خلال أجزائه المكونة له. لقد كان لتعريف العلامة عند سوسور التي لا يحصرها

في العلاقة التي تجمع بين الأشياء ومسمياتها بل هي ربط بين مفهوم(concept) وصورة أكوستية أثر واضح في ظهور الدراسة المحايثة التي تقصي أي مرجعية خارجية في دراسة النص، وتلك هي الانطلاقة المنهجية التي تمثل روح البحث الدلالي الغريماسي الذي يستند خاصة إلى المفهوم النسقي للغة((نحن نبحث إذن عن الظروف الداخلية التي تحيط بالمدلولية، ولهذا السبب يجب أن يكون التحليل محايثا، هذا يعني أن الإشكالية التي يحددها العمل السيميائي ترتكز على التوظيف النصي للمدلولية، وليس على العلاقة التي يعقدها النص مع مرجع خارجي، وسيعتبر النص لذلك كأثر وكنتيجة لمجموعة من العلاقات تقام بين عناصر دالة، إذن علينا تأسيس الكيف المتعلق بالمفرد داخل النص))[5].

وضعت السيميائية المحايثة في المستوى الأكثر تجريدا البنية الأولية لإنتاج الدلالة التي تم تحديدها في المربع السيميائي الذي عرفه كل من غريماس وكورتيس بوصفه((تمثيلا افتراضيا للتمفصل المنطقي لمقولة دلالية ما))[6] وهي بنية قائمة على تصور للدلالة يخالف التقليد السوسوري، إذ تعتبر أن دلالة مفردة ما لا تتحقق إلا بما تنشره حولها من علاقات محددة في أصناف ثلاثة وهي: التضاد، والتناقض، والتضمين، وإذ تبنى دلالة مفردة على هذا النحو فإنها تتأسس على نوع من التعالق بين محوري الحضور والغياب، وبتعبير آخر أن دلالة كل مفردة(لسانية أو غير لسانية) لا تتكون إلا بما تذكر به من غياب على المستوى التوزيعي، أي ما يضادها عبر وساطة ما يناقضها((ومن شأن المربع السيميائي أن يساعد على تمثيل العلاقات التي تقوم بين هذه الوحدات حتى تتولد الدلالات التي يضعها النص لقرائه(...) ويلخص البنية الأولية للدلالة ويرتبط ارتباطا وثيقا مع مستوى البنية السردية وما تقوم عليه من مقاطع سردية))[7]، إنه الأنموذج الذي يمكن استثماره في العديد من الأفضية السيميائية، أو كما عبر غريماس في كتابه" في المعنى" من أنه الأنموذج التشكيلي، يمكن أن يطبق بصفة عامة لتبيان وجود الدلالة من خلال بنيتها الأولية وتحقيقاتها الواقعية [8].

فشكل المضمون هي الوجهة التي يقصدها البحث السيميائي الذي تتأسس مقولاته على كون المعنى لا يستنبط من سطح النص وإنما استنادا إلى المسار التوليدي للنظرية السيميائية، وربط صريح النص بالضمني انطلاقا من النواة الدلالية وعلاقتها بالبنية الأولية للمعنى.

ولم يقتصر هذا المنهج على علمنة الدلالة من حيث هي نتاج ملفوظات بل انصب اهتمامه أيضا حول التلفظ وهو اهتمام نابع من المنجز الذي أسسه رومان جاكبسون R/Jakobson وصياغة بنية منتجة للعمل التي تجسدت في الأنموذج العاملي ومقولاته الست وهي: الذات، والموضوع، والمرسل، والمرسل إليه، والمساعد، والمعارض والعلاقات التي تقوم بين هذه العوامل هي التي تشكل الترسيمة العاملية. واللافت للانتباه في عمل غريماس هو الدقة في التمييز بين العامل والممثل حيث قدم وجها جديدا للشخصية في السرد وهو ما يصطلح على تسميته بالشخصية المعنوية في الاقتصاد، فعنده ليس من الضروري أن تكون الشخصية هي شخص واحد وذلك لأن العامل في نظر غريماس يمكن أن يكون ممثلا بممثلين متعددين، كما أنه ليس من الضروري أن يكون شخصا فقد يكون فكرة كفكرة الدهر أو التاريخ، أو قد يكون جمادا أو حيوانا إلخ...[9]، فالشخصية عند غريماس لا تتحدد بمواصفاتها بقدر ما تتحدد بدورها في الملفوظ السردي، فدراسة الشخصية بهذا التصور تمكن من التعرف على مجموعة من العلاقات القائمة بين العوامل وإبرازها عن طريق تحديد أدوارها رغبة في الإمساك بالمعنى، ذلك((أن الوظائف والمواصفات هي الخالقة للعوامل وليس العكس(...) لذلك فإن أية دراسة لبنية الشخصيات في عمل سردي ما ستكون قاصرة ما لم تطرح في أفق تحليلها الإمساك بالمكون الدلالي الذي يقف وراء مجموع البنيات الأخرى))[10].

إن مفهوم العوامل عند غريماس يصف ويصنف الشخصيات ليس وفقا لما تكون بل لما تفعل ليبحث في الوظائف، وهذه العوامل الستة من ترسيمة غريماس تشارك في ثلاثة محاور كبرى وهي:

1- محور الإرادة(الرغبة) الذات(الفاعل) الموضوع.

2- محور المعرفة(التواصل) المرسل(الدافع) المرسل إليه.

3- محور القدرة على العمل(المشاركة) المساعد/ المعارض [11].

ففي كل القصص تتوفر قوة الدفع، وقوة الجذب، وقوة الرغبة المضادة لكي يتحقق مسار التحول، إذ بدون التحول ينتفي البعد السردي في الرواية(الانفصال والاتصال) ولذا لا بد أن تشبع أو تكبت الرغبة وينشأ هذا الصراع في السرد كما هو في الواقع، فالموضوع

المطلوب واحد والذوات الراغبة جمع، فيؤدي هذا التشتت والإصرار إلى المواجهة وبالتالي إلى نشأة الحكاية.

لقد انصب اهتمام السيميائيات المحايثة على تحليل مختلف الآليات التي تولد الدلالة إلا أن ذلك لم يكن كافيا فسعت إلى الانشغال بما يضمن تلاحم الخطاب اللساني وانسجام الدلالة فأسست لهذه الغاية مفهوم التشاكل isotopie الذي يعني عند غريماس((تكرار عدد من العناصر الدلالية أو النحوية في خطاب ما. والتشاكل شرط لانسجام النص وهو إلى ذلك شرط لإقامة المعنى حتى داخل النص أو أحد أجزائه))[12].

خلاصة يمكن القول إن الدرس الدلالي عرف الاكتمال في شقه السطحي والعميق مع غريماس لتتجلى السيميائية في مظهر تتعانق فيه صرامة المنهج الرياضي، وصورنة المنهج البنوي، ونسقية البحث اللساني مقدمة مجموعة من المقولات التي يموضعها غريماس في بنيتين: إحداهما عميقة والأخرى سطحية تقديم الآليات التي تصنع المعنى في قالب علمي فيه من الصرامة والدقة الشيء الكثير، واستعادة المعنى لحقه المهضوم حين أبعدته الأبحاث اللسانية عن دائرة اهتمامها وأقصته كلية. إن السيميائية السردية(((...) تقدم نفسها على أساس أنها نموذج في تحليل النصوص السردية بجميع أنواعها، إلا أنها تعد في واقع الأمر فلسفة في المعنى وطرق إنتاجه وأنماط وجوده وانتشاره وتعد من خلال ذلك أيضا تفسيرا للطريقة التي يلتقط بها الوعي ما يوجد خارجه))[13].

وجدير بالذكر في هذا الإطار إلى أن مدرسة باريس ممثلة في مشروع غريماس الموسوم بالسيميائية السردية، لم تخل من بعض النقائص، إذ وجهت إليها انتقادات كثيرة ذات الصلة بالمنهج تارة وبالغاية تارة أخرى ويمكن أن نسوق جملة من هذه الانتقادات في حدود ما تسمح به طبيعة هذه المداخلة.

لقد فشلت نظرية غريماس(((...) في كثير من الأحيان في استيعاب ما يمكن أن تحيل عليه النصوص السردية الحديثة من حيث هي نصوص مركبة لا تخضع لخطاطة واحدة، ولا يمكن أن تبنى كما تبنى الحكايات الشعبية(...) وقد تكون الرواية من حيث عوالمها لا من حيث نفسها السردي نقيضا لما تقوله الحكايات بحكم ارتباطها بطبقة اجتماعية كانت تلوح بعصا الحداثة والعلم واليقين الوضعي، لذلك فإن العوالم التي تقدمها تنفر من الخطاطات

المسبقة لتعانق الكون في تنوعه وتعدده))[14]، وربما يعزى ذلك إلى اعتماد غريماس في مشروعه السيميائي على المشروع البروبوي الذي انحصر في الفلكلور وفي الحكايات الشعبية وهذا الأمر لا يصلح على باقي الخطابات والنصوص الأدبية على النحو الذي جابهته النصوص الطويلة والممتدة من مثل الرواية لأنها تبنى على إشكالية إنتاجية مغايرة تتمثل في الخطاب المكتوب وفي الكتابة المستندة إلى ذات معروفة في مقابل الذات المجهولة في الثقافة الشعبية((ومن باب أولى تصبح نماذج التحليل السردي المأخوذة عن بروب أو المعدلة قليلا، أقل ملاءمة دائما لتوضيح موضوعات ذات تعقيد بنائي أكبر))[15]. ولقد كانت كريستيفا محقة حين تنبهت إلى أن البنيوية الأدبية طبقت انطلاقا من تحليل الحكايات الفلكلورية(بروب) أو الأسطورة(ستروس) نفس الأنموذج الأسطوري على دراسة الرواية، من دون أن يتحصل لديها الإدراك بأن تقليص الرواية إلى مجرد أسطورة شيء يتعذر تصوره))[16]. وتعلل كريستيفا عدم طرح البنيوية لمسألة تحول البنية السردية إلى ما يغايرها((كونها كانت منشغلة بإسناد نفس الثوابت الإيديولوجية لكل العصور، من خلال حكي موحد))[17].

وفي سياق الكلام عن مدرسة باريس السيميائية نرى أنه من الضرورة الإحالة إلى ذلك البعد الفاصل بين ما كانت عليه البدايات السيميائية مع رائدها غريماس في الستينات وحال هذا المشروع السيميائي اليوم، ذلك أن هذا المسار لا يزال في حالة تحول مستمر، وليس من السهل تحديد وحصر مجمل التحولات التي لازمته، وحولت مساره كما أن تحديد الاكتشافات التي أغنت مفاهيمه ومنهجياته وإحصائها يعد أمرا مضنيا. فالاهتمام بمسألة التلفظ والرغبات وحالات النفس من الموضوعات المستعصية وذلك لإحالتها إلى خارج الملفوظ ومساسها بمبدأ المحايثة والموضوعية في البحث، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى موضوعات رئيسية في التحليل السيميائي اليوم مع فونتانيل(J/Fantanille) وكورتيس(J/Courtés) وغيرهما، والسبب مرده إلى كون هذه التحولات تتحكم فيها إرادة معرفة جامحة لها من الكفاءة المفهومية اللازمة التي تؤهلها من مقاربة هذه الموضوعات دون أن تخشى الانحراف عن مسارها العلمي. فالبرنامج السيميائي اليوم وكما تمثل عند جوزيف كورتيس تميز بتعدد التحاليل، وإنجاز مقاربات سيميائية لخطابات متنوعة سواء أكانت لفظية أو غير لفظية[18]

ذلك أن مصطلح ذلك أن مصطلح اللغة لا يبدو وفق التصور السيميائي مقتصرا على المعنى اللساني، وإنما أصبح يشمل كل أنظمة التمثيل الممكنة، ويمكننا((فحص الخطابات الأدبية والاجتماعية(القانون، الأسطورة، الدين... إلخ)، ودراسة التمثيلات البصرية(...) وكل الاستعمالات السيميائية(..) وفي كلمة واحدة هي تحليل كل ما هو حامل لمعنى في ثقافة معطاة، مهما يكن الحامل الحسي للإدراك))[19] عمل كورتيس من خلال تحليلاته السيميائية الكثيرة على خطابات متنوعة إلى إثبات أن المقاربة السيميائية قابلة لأن تطبق على أي موضوع دال، وعلى أي موضوع خطابي، ولا يمكن قياس القيمة الحقيقية لأي منهج إلا من خلال الممارسات التطبيقية، ذلك أن السيميائيات كما يرى كورتس معرفة تستهدف (((...) عرض لعبة التدليل ليس في مستوى اللغة باعتبارها نظاما مغلقا، بقدر ما هو في الاستخدام الملموس للعلامات في المستوى التوزيعي كما في المستوى الإبدالي في إطار لغة حقيقية في حالة اشتغال كما يمكن أن يعاد التقاطها في مظهرها الختامي، أي حين تنجز وتنهي وتوضع في متناول المتلقي أو المتلفظ له))[20]

ولعل مشروع سيميائيات الأهواء يعد أهم امتداد للسيميائيات العامة، حيث إن الدراسات السابقة اعتمدت على البعد المعرفي والتداولي للخطابات وذلك ما ترك فراغا تمثل في إهمال الأحاسيس والعواطف التي تحتل مكانا هاما في الخطابات الأدبية بهدف دراسة الأشكال التعبيرية المختلفة التي يعنى بدراستها السوسيولوجيون وهذا الشكل من الظاهراتية العلمية أدى بالدارسين إلى نسيان الدلالات الإنسانية[21]. لقد تم إدخال البعد العاطفي تدريجيا وبحذر في الدراسات السيميائية، فالعواطف والأحاسيس تتميز بارتباطها بالذات لذلك تستدعي دراستها الاهتمام بعلم النفس وهذا ما يؤدي بها أحيانا إلى الخروج عن مجالها، غير أن الرهان بالنسبة للسيميائية تمثل في بناء دلالة لهذا البعد العاطفي في الخطابات، إذ لا تؤخذ العاطفة من جانب تأثيرها في الذوات الحقيقية(الجانب النفسي)، بل من جانب كونها تنتج معاني مشفرة ومسجلة في الخطابات، وهي بهذا تساهم في إنتاج تمثيلات ثقافية مختلفة تثري الخيال العاطفي فيقوم بتثمين العواطف دون الأخرى((لكن وعلى الرغم من هذا التحول الإبستيمولوجي، فإن سيميائية الأهواء جاءت مكملة لسيميائية العمل حيث ان مشروعها ينهض على أساس سد ثغراتها وملء البياضات التي تعتور بناءها النظري (...)

والنماذج النظرية، والخطاطات المعيارية التي يقدمها استجابة لشروط إبداع ملائمة للمكون الهووي داخل الخطاب))[22]

وعلى أساس هذا الافتراض النظري، يقوم شرط الانتقال من مرحلة المكاسب النظرية إلى فضاءات المشاريع. ويتم ذلك وفق تصور ابستيمولوجي يقوم على أساس اعتماد مقولة الاتصال في صيرورة مسار النظرية، واستبعاد الحوادث القطائع.

ما نخلص إليه عقب تتبع نظرية غريماس السردية هو أن هذه النظرية لم تهتم بمختلف الأبعاد التمظهرية ذات الصلة بالقيود الأجناسية أو الأبعاد الجمالية والفنية، إذ أنها بالمفهوم الحقيقي نظرية تصف شكل المعنى ولم تشيد لضبط الأدبية التي أغفلتها بشكل قصدي بوصفها معطى موسوما بخصوصيات الثقافات والحقب، وأهواء الكتاب، على الرغم من تخصيصها معجما هاما في جزأين لكل المفاهيم المرتبطة بهذا المستوى. إن الاستفادة من نظرية غريماس تكون بالتركيز على ما هو ممكن ومنسجم، أي الاهتمام بوصف تشكل المعنى وبنائه، مع الاعتقاد الراسخ بأن المعنى ليس قابعا في الإجراءات التي رسمتها النظرية، بل يكمن في ممكنات النص التي قد تشكل إحراجا للنظرية وفي خلفيات القارئ ومهاراته، وعدم الجزم بأن الاستناد إلى هذه النظرية يعني حتما أن المعنى معطى جاهز، وما على الناقد إلا أن يتبع تعليمات النظرية للقبض عليه، ذلك((إن النص ليس نسقا مغلقا، وإن كان قد قُد من كيان لغوي فسيظل نسقا مفتوحا مليئا بالفجوات والثغرات، وهذا سر جماليته وأساس أدبيته، بل إن شعرية الغياب وجمالية الفراغ الباني تشكلان قوامه الجوهري))[23]. وغريماس في سياق ما كتبه لم يجد حرجا في توظيف لفظة التأويل خاصة عندما يتحدث عن الدلالة التوليدية وهذا ما توقفنا عنده في خاتمة دراسته: موباسان، سيميائية النص، دراسة تطبيقية حين قال:((بداية تحليل النص كان مقطعا لأنه يتعلق بمقاربة استقرائية وتأويلية كان من الممكن أن تكون مطولة من خلال مسار بنائي يبحث عن إعطاء تمثيل منطقي للدلالة))[24]. فالسيميائية من هذا المنظور هي أيضا بحث استقرائي وتأويلي للمعنى، ومجالها ليس البنية المحايثة المغلقة فحسب وهذا ما تؤكده آن إينو حين قالت:((إن الأعمال الأخيرة لغريماس تجتهد في إعادة تأويل من منظور هيئاتي كل ما يتعلق بدائرة الإحساس، والإحاطة إلى جانب تشكيل الهيئاتي للمستوى الخطابي(الطرق المتنوعة للإسهام في وجود الفضاء،

والزمن، وسير الممثلين) بالهيئات العميقة المتعلقة بالتقويمات المتنوعة))[25]. إن التحليل السيميائي يقوم على منظور صيغي(إرادة الفعل، وجوب الفعل، قدرة الفعل) المتعلق بالبرنامج السردي وبالمكون السردي عموما أما إعادة التأويل فتتعلق بالشكل الهيئاتي (الفضاء، الزمان، المكان) المتعلق بالجانب الخطابي((أي أننا نلمس دعوة ضمنية من آن إينو إلى التوجه نحو تبئير التحليل على المكون الخطابي بدل المكون السردي الذي نال حقه من التحليل وهو انطباع يتملك الباحث من أول وهلة بمجرد أن يعاين التسمية: السيميائية السردية فلم لا السيميائية الخطابية؟))[26]. إن في تقاطع المكون السردي، والمكون الخطابي تنظيم لمدلولية النص، ذلك أن الخطاب يتأسس على جملة من الأفعال المسرودة تقود إلى تطور النص وبنائه وفق سيرورة دلالية داخلية خاضعة لمنطق الحكي وعلى بسط خاص للممثلين في حالة وفي زمان ومكان ما معطى في النص عن طريق الوصف. أما التحليل السيميائي فهو يهدف إلى البحث في الكيفية التي تتموضع فيها هذه العناصر داخل الخطاب والاشتغال على المجالات التصويرية، وتتبع مساراتها في النص، وقياس العلاقة الدلالية بين الصور من خلال الاعتماد على التشاكل((والسبب في هذا يعود ربما إلى ما ورثته السيميائية من البنيوية والتحليل المحايث للبنية من جهة، ومن جهة أخرى ما ورثته الشكلانية الروسية التي ترى في الوصف إثارة لمشكلة الواقعية في الأدب، ومسألة المرجع الذي ظل مبعدا في الدراسات البنيوية والسيميائية، باعتباره يخل بمبدأ البنية والنسق المغلق للنصوص))[27].

لقد حاولنا من خلال هذه التوطئة النظرية عرض نظرية غريماس في خطوطها وفي ملامحها البارزة- كما سبقت الإشارة- على النحو الذي يمكننا من استجلاء حضورها أو غيابها في المدونة النقدية المغاربية ولاسيما على المستوى الإجرائي لأن الحديث عن التنظير سابق لأوانه.

2 حضور السيميائيات الغريماسية في مدونة عبد الحميد بورايو الموسومة بـ: المسار السردي وتنظيم المحتوى- دراسة سيميائية لنماذج من الف ليلة وليلة-

تدين الحركة السيميائية المعاصرة في الجزائر بالفضل الكبير والرائد لعبد الحميد بورايو في التعريف بالسيميائية، إذ يعد من الدارسين الذين حملوا على عاتقهم ضرورة تبسيط بعض النظريات السيميائية الغربية وتطويعها ليشملها الدرس النقدي العربي كالنظرية الغريماسية

في قراءة وفي تحليل النصوص السردية في إطار مشروع سيميائي عربي جزائري حديث وتبسيط نظرية غريماس للباحث العربي من خلال بعض الممارسات التحليلية التي قدمها له ليحتذي حذوها في مقارباته السيميائية للنصوص السردية العربية. وتندرج هذه الدراسة (((...) في سياق الدراسات الحداثية التي يممت شطر السرديات في مقاربتها للنصوص السردية التراثية الشعبية))[28].

يعلن الدارس منذ الأسطر الأولى لهذه الدراسة انه سيقتفي منهج غريماس في سيميائيته السردية محاولا اختبار أدواتها الإجرائية على نصوص من الليالي التي على الرغم من المكانة التي تحتلها في التراث الإنساني، إلا أن مجمل ما قدم حولها من دراسات ظل حبيس معاينة المضامين الاجتماعية والسياسية والثقافية لا غير((أما المسائل المتعلقة بأبنيتها وأشكال محتواها وخطابها فقد ظلت مهملة لأسباب مختلفة منها على سبيل المثال ما يتعلق بقصور المناهج الدراسية المعتمدة في فترة ظهور هذه الدراسات وعجزها عن معالجة مثل هذه الظواهر، ومنها ما يتعلق بطبيعة هذا الأثر الذي ينتمي للأدب الشعبي أكثر مما ينتمي للأدب الرسمي))[29]. وعلى الرغم من أن الغاية الكامنة وراء تدوين قصص الليالي على نحو متواتر ومتكرر هو توجيهها أساسا للقراءة، إلا أن هذه القصص أقامت في الوقت ذاته علاقة أخرى أخرجت نص الليالي من إطارها الرسمي المقروء إلى إطار شفوي ونقصد بذلك علاقة راوي/مستمع((ويصبح الشفوي سيد الموقف، ويظل نقل حكايات الليالي يزاوج بين وسائل التدوين ووسائل الرواية الشفوية في العالم العربي إلى يومنا هذا))[30].

من هنا اكتسبت نصوص الليالي صفة التعدد والتنوع بانتقالها من إطار جغرافي إلى آخر، ومن بيئة ثقافية وفكرية إلى أخرى وخضعت لمبدأ الحذف تارة وإلى مبدأ الإضافة تارة أخرى((غير أنها تظل محافظة على هيكلها وعلى طبيعتها الخاصة، على درجة أننا يمكن أن نميز ما ينتمي إليها وما هو غريب عنها، كما يمكن تمييز ما هضمه جسمها وتمثله عبر عصور معينة وفي فضاءات إنتاج واستهلاك يمكن حصرها وتعدادها))[1]. إن البحث عن الثوابت في نصوص الليالي يذكرنا بالتحليل البنوي للأسطورة الذي قدمه ليفي ستروس Lévis Strauss بحيث كان هاجسه المبدئي قبل مباشرة الأساطير بالدراسة هو البحث عن الثوابت البنوية فيها وتقصي ما هو مشترك بين النسخ المتعددة للأسطورة الواحدة إيمانا منه

أن للأسطورة ثوابت يمكن الكشف عنها وتمييز الصحيح فيها من الزائف رغم ترحالها في الزمان والمكان. فكانت الحكايات الأصلية لليالي هي النسخة التي اعتمدها الدارس لمسوغات منهجية بحتة تصبو إلى تقديم دراسة سيميائية تراعي مجمل خصوصيات نصوص الليالي و((التعامل مع مكوناتها على أنها بنية كبرى واحدة، مع احتمال وجود تشابهات وتمثلات في البنى الصغرى(السردية والفاعلية والغرضية والمكانية إلخ....))[31]. ولم يخف الدارس أن اختياره للنصوص الأصلية لليالي دون غيرها إنما هو قناعة أكدتها رؤية أحد مؤسسي السرديات، وهو كلود بريمون الذي رأى أن الحكايات الأصلية لليالي تشترك في الأغراض وفي طريقة السرد المستمدة من التراث الشفوي المتمثل في جملة من الحكايات المدونة في أقدم المخطوطات، أهم ما يسمها هو محافظتها على أسلوب الترابط الموروث عن التقاليد الشفوية، إلا أن هذا الترابط ينحل بمجرد تحول هذه النصوص إلى أخرى تتفاوت في أساليبها وفي أغراضها [32].

أما الإطار المنهجي لهذه الدراسة فقد وضحه الدارس بشكل فيه من الدقة والوضوح الشيء الكثير منوها في الوقت نفسه بذلك الدور الذي قامت به المدرسة الغريماسية في إرساء منهجية صارمة للمقاربات السردية. يقول الأستاذ بورايو:((وقد حرصنا مراعاة للانسجام المنهجي، على أن نستمد أغلب أدواتنا المنهجية من نصوص تنتمي في أغلبها لنفس المدرسة السيميائية، والتي يمكن أن نطلق عليها المدرسة الغريماسية ذات التوجه الشكلاني، والتي كان لها اليد الطولى في تطوير السرديات(أو علم السرد) منذ الستينات حتى اليوم، وكان امتدادها في الدراسات السردية عبر دوائر البحث العلمي))[33].

لقد كانت غاية الدارس في هذا البحث الأكاديمي هو القبض على المعنى، ورصد الدلالة، والتعرف على نظام المحتوى في نص اخترق القرون من الزمن وألفت حوله العديد من الدراسات العربية والغربية ولهذه الغاية رأى الدارس أن خطته المنهجية ستقوم على جملة من الخطوات حددها في الآتي:

* الانتقال من الجمل السردية النصية إلى الجمل السردية الملخصة التي نتحصل عليها عن طريق عملية الاختزال المذكورة سابقا.

* تعيين كل وحدة منها بإطلاق تسمية نمطية للحافز المعين.

* إقامة ترسيمات شاملة تجسد البرنامج السردي[34]

ويعلن الدارس منذ عتبة البحث(العنوان) بأنه يتوجه نحو التحليل السيميائي للخطاب السردي عبر عنصرين وهما: المسار السردي وتنظيم المحتوى مما يشي بأنه سيستفيد من الجهود الفرنسية في فهم السيمياء، إضافة إلى الانفتاح على بعض المعارف الأخرى من خلال المصطلحات الدالة على ذلك. كما حرص الدارس على تحديد المادة التي سيدرسها تطبيقيا في العنوان من خلال إدراجه لعنوان فرعي يدل على أن الهدف الرئيسي لهذا البحث هو هدف تطبيقي صرف أعد له العدة للابتعاد عن التشتت، وللتمكن من الإحاطة بمعالم الدراسة على نحو منهجي صارم والغوص بعمق في المدونة التي يشتغل عليها، وللتدليل على أن النقد السيميائي السردي فيه من الغنى الشيء الكثير مما يسمح للناقد في التنويع والمغايرة وإبراز الخصوصية. لكن ما توقفنا عنده ونحن نتصفح هذه الدراسة تصفحا أوليا هو أن الدارس لم يتخلص مما وسمت به الكثير من الدراسات العربية في هذا المجال، ونقصد بذلك تصدير مختلف الدراسات بمداخل أو بفصول نظرية قبل الولوج إلى المستوى الإجرائي، ولعلنا في ذلك نخالف الرأي الذي ذهبت إليه سليمة لوكام التي ترى أن هناك غيابا واضحا للفصول((النظرية التي عادة ما ترد في مثل هذه الدراسات الإجرائية التحليلية، وتشكل مهادا نظريا فيها. ويبدو أن عناية بورايو بالعرض النظري وعدم إغراقه في البسط والتفصيل يرتد من جهة إلى إيلاء اهتمامه إلى الخصائص البنيوية المميزة لنصوص" ألف ليلة وليلة" وإلى حرصه على تحليلها تحليلا يتناسب مع تفرد بنائها وخصوصية السياق الذي ظهرت فيه))[35].

ولكن بماذا نفسر تخصيص الدارس لملحق يتجاوز الأربعين صفحة خصها لمسائل نظرية تتعلق بالنظرية السيميائية الغريماسية من خلال مباحث تتمثل في:

* ا.ج غريماس وجكورتيس: تعريفات اصطلاحية- البنية العميقة- البنية الدلالية- المربع السيميائي.

* ا.ج غريماس وفرانسوا راستييه: حركية الضرورات السيميائية.

* ا.ج غريماس: الفواعل، الممثلون، الصور[36].

ألم يكن جديرا بالدارس أن يجعل هذا الملحق فصلا نظريا يحدد فيه مختلف المحطات الكبرى للنظرية التي سيتحرك في إطارها لأن طبيعة المادة المقدمة في هذه

الصفحات لا يمكن أن توصف بالملحق لأن لهذا الأخير خصوصيات تميزه؟ ولعل الدارس يستدرك هذا الخلل المنهجي حين طبع الجزء التطبيقي لهذه الدراسة تحت عنوان" التحليل السيميائي للخطاب السردي، دراسة لحكايات من ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة[37] بحيث عوض الملحق الذي ورد في الدراسة الأكاديمية بآخر ضم نصوص الليالي التي تمثل المدونة التي اشتغل عليها ونرى أن ما قام به في هذا الإطار أقرب إلى الصواب والمنطق منه في الدراسة الأولى التي يمكن عدها منشطرة إلى شق نظري وآخر تطبيقي وأن اختلافها عن الدراسات التي سبقتها أو عاصرتها يكمن من الناحية المنهجية في تأخير الفصل النظري وتقديم المباحث التطبيقية لا أكثر، فهو بذلك لم يخرج عما سنه النقاد العرب في أبحاثهم السيميائية ونقصد بذلك عدم مقدرتهم على الانفلات من تلك الأطر النظرية التي يؤثثون بها دراساتهم التطبيقية والأمثلة على ذلك كثيرة.

وإن كان الطابع العام لمختلف الصعوبات التي تواجه الدارس في مثل هذه الدراسات لا يخرج عن إطار جوهري يتمثل في صعوبة تمثل النظريات الوافدة وتطبيقها على مختلف النصوص، فإن أهم إشكال اعترض سبيل الدارس تمثل في طبيعة المدونة التي يشتغل عليها والتي تتميز بالثراء وبالتنوع والتي تفرض على الباحث وضع خطة منهجية تجمع بين الصرامة والمرونة في آن للتمكن من اختزال المادة القصصية في مقاطع سردية متجانسة وتجاوز هذا التعقيد الذي يسم نصوص الليالي وهو أمر صعب المنال(((...) يحتاج إلى حذاقة خاصة وإلى عناء وجلد وحسن تقدير وحذر شديد من الوقوع في التعسف والميكانيكية والابتعاد عن روح النصوص))[38]. يؤمن الدارس بأن المقاربة الحقيقية للنص لا تكمن في التطبيق الآلي والحرفي والميكانيكي للنظرية بقدر ما تكمن في التحايل على هذه النظرية أو تلك على النحو الذي يمكن من خلق فرص وفضاءات جديدة للقراءة والخروج بالنص إلى تأويلات لا تنتهي. فغريماس كما سبقت الإشارة في مدخل هذه الأطروحة يخرق مبدأ المحايثة التي أفرد لها الكثير من الدراسات ويقر بوجود عناصر خارج نصية تسهم في بناء النص ودلالته. فالصرامة المنهجية قد تسم معارف أخرى ولكنها لا تتحقق على نحو مطلق في الدرس الأدبي. فالموقف ((يتطلب نوعا من العصيان، تمردا على حدود المنهج وصرامته، كما يتطلب أيضا، وهذا هو الأهم أثاثا معرفيا يسوغ موقف الناقد ويبرره فنيا وجماليا تأسيسا على الزاد السردي

في سيرورته من أجل تفادي الأحكام الضمنية التي تصدر عن قلة معرفة))[39].

تقع هذه الدراسة في ستة فصول بحيث تنفرد الدراسة السيميائية لكل قصة بفصل، وقد صدرها بمدخل تعرض فيه بعد عرض المنهج إلى تحليل الملفوظ السردي، ثم عمم القول في مصطلح الملفوظ السردي ليدل على القصة وعلى المحكي فعنده((أن لكل قصة معنى من حيث أنها أولا منتجة لقضية تتطور وتؤدي من خلال وحدات توزيعية سنسميها وظائفا، وثانيا من حيث كونها تمثل استثمارا لعدد من الدلالات المنتمية لنسق معرفي ومتجسد عن طريق الحوافز))[40] فمن خلال هذا التحليل نلاحظ أن بورايو وسع معنى مصطلح وظيفة عند بروب ليشمل أحد مشكلات المسار السردي للقصة وهو السيرورة التنظيمية التي تتجدد وتفعل البنيات العميقة للقصة مع أنه قصر تحليله على مصطلحي الوظيفة والحافز ومصطلح المقطع الذي شرحه بالتآلف الوظيفي المتعدد والممنطق والذي يمكن تحديده في ثلاثة أزمنة وهي:

ما قبل- أثناء- مابعد. أما أقسام الوظائف التي حددها في: 1) الوضعية الافتتاحية 2) اضطراب 3) تحول 4) حل 5) وضعية نهائية وهي استعارة من نموذج كلود كازالي بيرارد في دراستها لقصص الديكاميرون التي تستعير هي الأخرى من ألف ليلة وليلة طريقتها السردية [41]. ويرى الدارس أن هذا التطور المنطقي الخطي وما يحتويه من أزمنة ومراحل إنما هو في الحقيقة جملة من العلاقات التي تتمتع باستقرار نسبي(الوضعية الافتتاحية) لتتحول إلى حالة فقدان التوازن جراء تغيير يصيب إحدى هذه العلاقات(اضطراب) وينتهي بها المطاف بعد التحول والحل إلى بناء علاقات جديدة مستقرة(وضعية نهائية):((وضعية افتتاحية تتبع باضطراب ثم يليها تحول يأتي بعده حل، وينضاف اضطراب ثالث يتلوه تحول إلخ... وتأتي في النهاية الوضعية النهائية))[42]. والمقطع السردي النمطي وما احتواه من علاقات ومراحل زمنية هو بمثابة((قصة دنيا وقد يكون عنصرا مكونا لسلسلة من المقاطع بحيث يلحق بها ويندمج فيها على مستوى الحل))[43]. وينبه الدارس إلى أن هذا التطور المنطقي الخطي ليس ثابتا، فنجده يمضي في عرض جملة من الاحتمالات التي يمكن أن ينفتح عليها السرد مشيرا إلى أن المقطع المنطقي خماسي الحدود الذي تحدث عنه((يمكن بدوره أن يختزل إلى وظيفة واحدة لكي يندرج في مقطع أكبر منه))[44]

إن استعانة الدارس بالنموذج المنطقي كان لغاية((بيان نحو للقصة تحكم معاييره الخاصة قواعد السرد في مدونة معطاة، فالترسيمة النموذجية الشاملة تشكل في حد ذاتها قاعدة للمقارنة الموضوعية نسبيا، والتي انطلاقا منها يمكن المقارنة بين قصة وقصة ضمن مجموعة مشكلة للمدونة مثلما هو الحال في الليالي))[45].

وإذا كانت البنية العميقة تستدعي البنية السطحية باعتبار((جذور الدلالة لا تمر بإنتاج الملفوظات وعلاقاتها بالخطاب، بل هي موصولة في خطابها بالبنيات السردية المنتجة للخطاب الممفصل إلى ملفوظات))[46]، فإن البنية السطحية تستدعي هي الأخرى البنية العميقة لما تحمله من شفرات وإشارات تقتضي حلها دلاليا من خلال عوامل التقابلات الضدية الكامنة وراء البنية السطحية. ولهذا السبب يتوقف عبد الحميد بورايو عند مفهوم البنية العميقة ودورها في الكشف عن الوقائع السيميائية وهذا الكشف لا يتحقق بمعزل عن المربع السيميائي الذي يجسد ذلك الجانب الشكلي للمعنى ويتأسس على علاقات منطقية استدل بها غريماس قصد التنظير لاستقراء عقلاني للدلالة. وفي هذا المقام أيضا يمكن القول بأن الدارس يطالع القارئ بين الفينة والأخرى بمقتطفات نظرية يعلل من خلالها للخطة المنهجية التي سيتبعها ومدرجا في الآن نفسه مقولات لغريماس وأخرى لكورتيس مما يؤكد تحرك هذه الدراسة في إطار السيميائية الغريماسية. وقد اجتهد الدارس في صياغة تعريف للمربع السيميائي بحيث يراه((أداة منهجية تسمح برصد انبثاق المعنى منذ حالاته الأولية- أو شبه الخام إن صح التعبير- وحتى حالاته التركيبية المختلفة المتبدية أولا في الدلالة التأسيسية ثم في مختلف التجليات: الصيغية، والفاعلية، والوظائفية والفضائية.....))[47]، فهو بذلك يوجه العلاقات المنطقية ويضبطها بين الوحدات المعنوية الصغرى مما يجعل فعاليته في عمق النص السردي تسير وتجسد شكل المعنى المراد إدراكه من التحليل ويتحقق من مدى صلاحيتها بالإضافة إلى ذلك يسجل النتائج المحصلة من هذا التحليل، ويتحقق من مدى صلاحيتها في تكوين العلاقات ذات الأبعاد الائتلافية.

إن السرد يحكمه نحو منظم لجدلية من المضامين الموجهة، وهذا النحو المنظم والمضامين الموجهة هي التي عبر عنها غريماس بمفهوم البنية العاملية أو النموذج العاملي والذي يقدمه عبد الحميد بورايو مجزءا إلى نماذج أربعة وهي:

* نموذج المسار السردي.
* نموذج الفاعلين.
* نموذج المسار الغرضي.
* نموذج البنية الدلالية العميقة [48].

فعلى مدار الفصول الستة لهذه الدراسة يتتبع الدارس هذه النماذج الأربعة بصبر وترو على الرغم من اتساع المدونة وتنوع مضامينها. ألم يكن حريا بالدارس ضبط المدونة وحصرها في نموذج أو نموذجين؟ وهل يجوز لنا القول مسبقا باحتمالية وصول الدارس إلى نتائج تتباين وتختلف من متن قصصي إلى آخر؟ أم أن الدارس يريد التأكيد على أن آليات السيميائية السردية المطبقة على النص السردي فيها من الصرامة العلمية الشيء الكثير وتهدف إلى التأكيد أن كل محتوى يخضع لنظام وشكل يصلح تطبيقه على كل النصوص مهما اختلفت هويتها ومضامينها؟ وبمعنى آخر التأكيد على بقاء المشروع السيميائي محتفظا بهيكله العام المشترك بين مختلف الخطابات والذي يتمثل في وصف الظروف المحايثة لإنتاج المدلولية بلغة واصفة تخضع لقواعد نظرية صارمة للوصول إلى تشييد نماذج تمثيلية لآثار المعنى الذي يبني الخطاب في خصوصيته.

ويرى المتمعن لمختلف الفصول التطبيقية أن الدارس يعمل ما وسعه لإسقاط الإطار المنهجي الذي صدر به هذه الدراسة على نصوص الليالي المختارة مستندا إلى ما أشيع حول الليالي كونها حكايات تنطلق من وضعية افتتاحية واحدة يلخص مضمونها في حكاية الملك شهريار الذي عزم على قتل كل امرأة بعد الدخول بها بسبب خيانة زوجته له، إلى أن جاء دور ابنة وزيره التي كانت على قدر كبير من الدهاء، تحايلت على شهريار الذي كان يرجئ قتلها يوما بعد آخر لأنها سحرته بسردها وبحكاياتها التي ما تكاد إتمامها إلا ويطالعها الصباح، فتعد الملك بإتمام الحكاية في الليلة الموالية. كانت هذه الوضعية بمثابة فرع ثابت في كتاب الليالي تتفرع عنه مجموعة من القصص اصطلح على تسميتها" الحكايات الإطار" والتي تشمل مجموعة من الحكايات الأخرى، ويسمى هذا النوع من الحكايات" حكايات التضمن" أي مجمل الحكايات التي جاءت ضمن الحكايات الإطار. وتقوم بنية التضمن على التمييز بين حكاية كبرى متضمنة (Enchâssante) وهي حكاية شهرزاد الخاضعة لمبدأ الحكي، وحكايات متضمنة

(Enchâssées) وهي نفس الحكايات التي تتشكل منها ألف ليلة وليلة. وتحضر هذه التفريعات المختلفة للقصة الإطار إلى أخرى متضمنة في دراسة عبد الحميد بورايو الذي استلهم هذه الخاصية البنيوية لقصص الليالي من مقولات طودوروف(T/Todorov) الذي يرى أن التضمن((يتمثل في دمج قصة داخل أخرى. فكل حكايات ألف ليلة وليلة- مثلا- متداخلة ضمن حكاية شهرزاد))[49].

وبهذا تحتاج الحكاية المتضمنة إلى أن يعاد الأخذ بها في حكاية متضمنة أخرى لأنها لا تكتفي بذاتها بل تحتاج إلى تطويل وإلى إطار تصبح فيه جزءا من حكاية أخرى.

ويمكن أن نستدل على ما ذهبنا إليه، بفحوى الفصل الثاني من هذه الدراسة والذي خصه الدارس لتحليل قصة التاجر والعفريت وهي حكاية بسيطة التركيب تتألف من:

* الحكاية الإطار الأم والتي تحكي قصة التاجر الذي التقى بالعفريت. وقد تولدت عن هذه القصة الإطار ثلاث حكايات من نوع حكايات التضمين والتي تتمثل في:

أ- الحكاية المتضمنة الأولى: وهي حكاية الشيخ الأول مع الغزالة.

ب- الحكاية المتضمنة الثانية: وهي حكاية الشيخ الثاني مع الكلبين.

ج- الحكاية المتضمنة الثالثة: وهي حكاية الشيخ الثالث مع البغلة.

يستهل الدارس تحليله بتتبع المسار السردي في الوضعيتين الافتتاحية والختامية وهو تتبع يرصد فيه حضور الوظائف القاعدية الخمسة التي تكون المقطع المنطقي الذي سبق له وأن حلله نظريا في مقدمة هذه الدراسة. وقد تبين للدارس أن هذا المقطع خماسي الحدود يتجلى في وجود:

* حالة توازن في الوضعية الافتتاحية للحكاية الإطار(حياة التاجر قبل لقاء العفريت).

* حالة اضطراب(حصول أذى).

* حالة تحول(تهديد، مواجهة وساطة).

* الحل(قضاء على الأذى).

* وضعية ختامية(هبة الحياة).

إن هذا المسار السردي المشكل من هذه الوظائف القاعدية يمكن ترجمته إلى برنامج سردي الذي يتعلق بعملية التحويل التي تتسم باتصال الفاعل بموضوع القيمة المرغوب

في امتلاكه أو بالانفصال عنه وعلى هذا الأساس نلاحظ((أن درجة الصراع بين العوامل تقاس بالقيم التي يسعى كل طرف إلى تحقيقها وتكتسي على هذا الأساس العلاقة فاعل/ قيمة أهمية بالغة في النص السردي(...) واضح من هذا الكلام أن القيمة لا تتحقق في تفردها ولا توظف لذاتها، بل تستمد وجودها من هذه الرغبة الدفينة التي تملك كيان الفاعل وتقوده إلى الصراع من أجلها وتملكها))[50]. وقد نقل عبد الحميد بورايو المفهوم النظري للبرنامج السردي ولمختلف تحولاته المتمفصلة والتراتبية إلى الإطار الإجرائي من خلال تحديده لحالات الوصل والفصل التي تخللت حكاية التاجر والعفريت [51]. ويتوصل الدارس إلى نتيجة مفادها حضور برنامجين سرديين في هذا المسار، يتمثل الأول في قيام العفريت بدور ذات الفعل التي تعمل على إحداث انفصال بين ذات الحالة(التاجر) وموضوع القيمة(الحياة الهانئة). أما البرنامج الثاني فهو من طبيعة إنجازية ومعرفية في نفس الوقت كان هدفه إقناع العفريت بالتخلي عن مشروعه السابق المتمثل في إحداث انفصال بين التاجر وحياته. وحري بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن الدارس يستلهم في أغلب محطات هذه الدراسة مقولات رائد السيميائية السردية(غريماس)، فتقسيمه لهذه الحكاية إلى برنامجين سرديين فيه تمثل جلي لتلك النتيجة التي توصل إليها غريماس الذي يرى((أن الخطاب السردي على جانب كبير من البساطة ويتأسس على مشروعين برنامجين سرديين متلازمين، ومن ثم يجوز للراوي أن يركز على أحدهما جاعلا الآخر ضمنيا لكن في اتجاه معكوس))[52] فكل برنامج سردي يفرض وجود برنامج سردي آخر نقيض له ينظر إليه من خلال مجمل التغيرات والتحولات المضادة التي يمكن متابعتها وتحليلها. كما استنتج الدارس أن في هذه الحكاية شخصيتين أساسيتين متناقضتين وهما: شخصية العفريت الذي يمثل جماعة الجن الذين يرغبون في الانتقام(قيمة متدنية)، وشخصية التاجر الذي يمثل جماعة الإنس الذين يتطلعون إلى الصلح والعفو(قيمة سامية) وتأسيسا على حضور هذه الشخصيات في الحكاية يشيد الدارس البنية الفاعلية في الوضعيتين الافتتاحية والختامية على النحو الذي أرساه غريماس حيث يرى أن هذا النموذج ((يتمحور حول موضوع الرغبة الذي يسعى الفاعل لأجله والذي يتحدد في موقع التواصل بين المرسل والمرسل إليه، وبرغبة الفاعل من جهته الموجهة وفق إسقاطات المساعد والمعارض))[53]. وقد وضع الدارس ترسيمة[54] لتمثيل الثنائيات الثلاثية Tripartion binaire

من العوامل التي تنتظم فيما بينها وتتفاعل في علاقات تثبت صلاحية الصلة من تعارض واتصال المكونة للنموذج. ويطالعنا الدارس بمفهوم" وساطة " وهو من المفاهيم التي لم يشر إليها وهو بصدد تحديد مداخله النظرية، إذ يعتبرها أهم وظيفة في متن القصة وتتمثل في الحكايات المروية من مرسل(باث) هو الشيوخ الثلاثة، إلى مرسل إليه(العفريت) وهي عبارة عن رسالة تمثل معرفة تنتمي للعالم البشري حيث عمل الباحث على تحليلها في هذه القصص المتضمنة. لقد أظهر الدارس وهو يتتبع المسار السردي للحكاية الإطار وما احتوته من برامج سردية وكذا تتبع البنية العاملية ودورها في تأطير البرنامج السردي حرصا شديدا للوصول إلى استنتاجات تؤهله إلى دراسة نظام المحتوى ومن ثم تحليل البنية العميقة للحكاية التي استند في تحليلها إلى المربع السيميائي بحكم أنه يوجه العلاقات المنطقية ويضبطها بين الوحدات المعنوية الصغرى مما يجعل فعاليته في عمق النص السردي تسير وتجسد شكل المعنى المراد إدراكه من التحليل.

وفي خاتمة تحليله لحكاية التاجر والعفريت يعرض لنا الدارس جملة من الاستنتاجات تشير جميعها إلى حضور رؤية موحدة بين الحكاية الإطار الأم وباقي القصص المتضمنة والأمر نفسه ينطبق على مجمل الحكايات موضوع فصول هذه الدراسة[55]. وتكمن الخصوصيات المشتركة بين القصة الإطار والقصص المتضمنة كونها جميعا تتفق على حضور قيم عليا أخلاقية واجتماعية يؤول لها الأمر في تحديد العديد من المسارات والاختيارات الإنسانية.

إن هذا الاستنتاج الذي توصل إليه الدارس فيه تجاوز للنظرية السيميائية السردية ومبادئها الصارمة. فإن أعلن الدارس في مدخل هذا البحث تبنيه لمقولات غريماس، إلا أننا نلقاه ينخرط في النسق الثقافي الاجتماعي والعام الذي تولدت فيه نصوص الليالي للوصول إلى رؤية متكاملة حول مفهوم تشكل البنية العاملية والبنية الغرضية في الحكاية، وحسبه أن استبعاد العنصر الثقافي قد يسئ في توجيه دفة التحليل والدراسة. أما الخاتمة العامة لهذه الدراسة فقد أجمل فيها الدارس خصوصيات حكايات الليالي استنادا إلى نماذج مختارة ولعل أهم خاصية توسم بها الليالي هي خاصية التضمن التي أثارت انتباه الدارسين الأجانب كما سبقت الإشارة((فتبين أن التأطير الذي تخضع له مختلف القصص لا يمثل فقط سمة شكلية

ومبررا لتوالد القصص وتكاثرها، بل هو مبرر أيضا في مستوى البنية العميقة، بحيث تم توظيف القصص المضمنة لكي تعكس الدلالات التي جاءت بها القصص الإطار وتؤكدها))[56].

ويرى الدارس أن هذه الخاصية أكسبت نصوص الليالي صفة التفرد والتميز عن المتون الحكائية الأخرى على اختلافها، وجعلت منه نصا متعاليا يحاول الانفلات من كل محاولات التجنيس والتصنيف، أو أنه خطاب جمع تتقاطع عبر مساحته كل أشكال الكتابة الإبداعية المختلفة، فهي((تمثل صنفا من القصص لا يقبل الاندماج بسهولة في غيره من الأصناف القصصية المحددة طرزها بصفة مسبقة عن طريق التصانيف العالمية للحكايات الشعبية))[57].

ولم يتوقف إعجاب الدارس بنصوص الليالي من حيث بنائها الشكلي والدلالي وخرقها لما هو متعارف عليه من أطر سردية بل تجاوز ذلك إلى الدفاع عن نصوص الليالي التي وسمت ولاتزال بالنص المنافي للأخلاق العامة، إلا أن الدارس يعد نصوص الليالي من النماذج التي ((ظلت منحازة للمثل الاجتماعية التي آمنت بها قطاعات عريضة من فئات المجتمع التي ظلت تحتضنها وتعيد إنتاجها باستمرار في العالم العربي إلى يومنا))3. فالسؤال الواجب طرحه في هذا المقام ما علاقة مثل هذه الأحكام والتأويلات بدراسة يتبنى فيها صاحبها مبادئ النظرية السيميائية المحايثة التي تأبى الخروج عن الداخل النصي؟ فكان من الأوفق- حسب رأينا- عدم إقحام وجهة النظر هذه حول حكايات الليالي كاستنتاج في هذه الدراسة لأنها أساءت إلى طبيعة المنهج المتبع ولم تعضد الرؤية المنهجية المتبناة. وهذا لا يعد انتقاصا من قيمة الاجتهاد لو أنه أشار في مقدمة الدراسة إلى أنه لم يلتزم بالمنهج الغريماسي التزاما حرفيا وإنما عمله فيه خرق وتجاوز لهذه النظرية أملاه عليه طبيعة المدونة التي تفرض حضور التأويل والتفسير وبمعنى آخر حضور المتلقي وتصوراته وهو يباشر هذه النصوص بالقراءة. كما توصل الدارس إلى أن منظومة الوسائل الإجرائية التي استند إليها في هذا العمل أثبت نجاعتها في دراسة متن سردي تراثي وفي ذلك تحفيز لإعادة النظر في طريقة التعامل مع النصوص التراثية التي فيها من الغنى والثراء ما يؤهلها لاستيعاب هذه المناهج الحديثة.

والحقيقة أن عبد الحميد بورايو من خلال هذا التحليل يعد من رواد السيميائية في العالم العربي لأنه يتمثل النظرية السيميائية في مختلف تجلياتها وأبعادها والدراسة التي بين أيدينا دالة على ذلك، خاصة وأن الفترة التي أنجزت فيها تمثل البواكير الأولى للبحث السيميائي العربي.

وما هو لافت للانتباه في هذه الدراسة هو أن الدارس لم يحفل بالمصطلح السيميائي السردي في لغته الأم ولم يدون لنا ملحقا لثبت المصطلحات التي أثثت هذه الدراسة، بل يمكن القول إن هذا العمل يخلو من حضور المقابل الأجنبي للمصطلح العربي وهذا ما حال دون تخصيصنا لجزئية من هذه الدراسة لتلقي المصطلح السيميائي السردي في عمل عبد الحميد بورايو.

أما مكتبة المراجع التي اعتمدها الدارس فإنها تحفل بحضور كتب تاريخية واجتماعية التي تتحدث عن المرحلة التي تنتمي إليها الليالي إلى جانب كتب أخرى ذات الصلة بالمنهج المتبع والتي يمكن وصفها بالقليلة، إلا أن ذلك قد يعزى إلى قدرة الباحث على تنفيذ الإجراء النقدي ما غطى على قلة المراجع خاصة وأن هذه الدراسة جاءت بعد معاشرة طويلة للسيميائية على المستوى النظري والتطبيقي والترجمي. والمراجع المعتمدة في هذه الدراسة تدل على أن الدارس لم يحفل إلا بتلك الدراسات التي تشكل علامات بارزة في الدرس السيميائي والتي يجب العودة إليها في التحليل والدراسة السيميائية.

الهوامـــش:

1 A/J Greimas, Du sens, Essais sémiotique, éd du Seuil, Paris, 1970, p 17.

2 ينظر رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة، الجزائر، دط، 2000، ص 8.

3 A/J Greimas, sémantique Structurale, imprimerie Larousse, Seuil, 1996, p 6.

4 F/de Saussure, Cours de linguistique générale,éditions Talantiki, Béjaia , 2002, p 137.

5 فريق انتروفرن، التحليل السيميائي للنصوص، مقدمة نظرية، تطبيق، ترجمة حبيبة جرير، مراجعة عبد الحميد بورايو، دار نينوى، دمشق، سوريا، دط، 2012، ص 36.

6 A/J Greimas, Joseph Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, édition Hachette, Paris, 1979, p 29.

7 محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، 2010، ص 382-384.

8 A/J Greimas , Du Sens, p 136-137.

9 حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ط3، 2000، ص 52.

10 فيليب هامون، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار كرم الله للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2012، ص 13.

11 A/J Greimas, Sémantique structurale, p 176-177-179.

12 محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس، ط1، 2010، ص 91.

13 سعيد بنكراد، السيميائية السردية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2012، ص 8.

14 سعيد بنكراد، السيميائية السردية، ص 166.

15 جوزيف كورتيس، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ترجمة جمال حضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص 16.

16 Julia Kristeva, le texte du roman, approche sémiologique d'une structure discursive transformationnelle, 1970, p 16

17 Julia kristeva Le texte du roman, p16.

18 ينظر جوزيف كورتيس، سيميائية اللغة، ترجمة جمال حضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 11.

19 المرجع نفسه، ص 9.

20 المرجع نفسه، ص 8.

21 ينظر برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، ترجمة محمد نظيف، إفريقيا الشرق، ط2،

1994، ص 97.

22 محمد بادي، سيميائيات مدرسة باريس: المكاسب والمشاريع(مقاربة إبستيمولوجية)، مجلة عالم الفكر، ع3، المجلد 35، يناير- مارس 2007، ص 312.

23 أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار الغرب للنشر، الجزء الثاني، 2001، ص 236.

24 A/J Greimas, Maupassant, la sémiotique du texte, exercices pratiques, éditions du Seuil, paris, 1976, p 264.

25 آن إينو، تاريخ السيميائية، ترجمة رشيد بن مالك، نشر مشترك بين دار الآفاق، ومخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر، 2004، ص 123.

26 حسين خالفي، البلاغة وتحليل الخطاب، دار الفارابي، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص 55.

حسين خالفي، البلالغة وتحليل الخطاب 27، ص 72.

28 سليمة لوكام، تلقي السرديات في النقد المغاربي المعاصر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، عنابة، السنة 2008،(مخطوطة)، ص 271

29 عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، دراسة سيميائية لنماذج من ألف ليلة وليلة، رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه في الآداب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1995-1996(مخطوطة)، ص ج.

30 المصدر نفسه، ص 3.

31 المصدر نفسه، ص 4.

32 عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 5.

33 المصدر نفسه، ص 1.

34 المصدر نفسه، ص 9.

35 سليمة لوكام، تلقي السرديات في النقد المغاربي المعاصر، ص 272.

36 عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 228 وما بعدها.

37 عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردي، دراسة لحكايات من ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة(الملك شهريار، الصياد والعفريت، الحمامة المطوقة والثعلب ومالك الحزين)، منشورات مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، (دت)، (دط).

38 عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 7.

39 السعيد بوطاجين، المقاربات السردية، الحالة الجزائرية، ندوة الرواية العربية والنقد، المداخلات والتوصيات، 8-9 يناير 2010، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010، ص 85.

40 عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 15.

41 المصدر نفسه، ن ص 15.

42 المصدر نفسه، ص 16.

43 المصدر نفسه، ص 16.

44 عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى ، ص 18.

45 المصدر نفسه، ص 18.

46 A/J Greimas, Sémantique Structurale, p 159.

47 المصدر نفسه، ص 19.

48 ينظر فهرس هذه الدراسة(المسار السردي)، ص 280 وما يليها.

49 تزفيتان طودوروف، مقولات الحكاية الأدبية، ترجمة عبد العزيز شبيل، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد 10، ربيع 1990، ص 110.

50 رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق أطروحة دكتوراه دولة(مخطوط)، معهد الدراسات الشعبية، تلمسان، السنة الجامعية 1995/1994، ص 110.

51 ينظر عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 51.

52 A/J Greimas, un problème de sémiotique narrative: les objets de valeurs, in langage, année 1973, n°31, p 29.

53 A/J Greimas, sémantique structurale, p 180.

54 ينظر عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 51-52.

55 ينظر عبد الحميد بورايو، المسار السردي وتنظيم المحتوى، ص 67-68.

56 المصدر نفسه، ص 226.

57 المصدر نفسه، ص 226.